قصة للتاريخ

— ١ —

تنفس الصبح وهي ساهرة تذكر الماضي فيطوف بها الأسى، وترقب وجه النهار المقبل فيهتف بها الخوف. لقد كان زوجها حبيباً فشربت كأسه مُرّة وعرفي وبيع دياد، وكان ولدها البكر زينة ورجاء فثكلته بعد أبيه، ثم كانت مشيئة الله في بصرها العالي فكُفّ من مدّ البكاء، وكادت نفسها تفيض لولا رحمة من السماء شاءت لها أن تعيش ...

وأنت لو شهدت هذه المكفوفة في ليلها ذاك، لحسبتها ظلاً لامرأة خلعت على حشية فقيرة، وقُرْبَة من نائم شاب تتحسسه مترفقة، فتمرّ بيدها الراجفة على رأسه، وتمرّ بها على دثاره؛ وتستاف نسيمه تارةً كالشحيح الخائف على نفيس عنده، فهو يأخذ نفسه بالتامه، ويأخذها بمعاودة هذا الالتماس، وفي الأحيان المتقاربة.

كان هذا الشاب ولدها الوحيد، أو طفلها كما تدعوه، وإن كان قد عدّ عشرين ربيعاً، وغداً يتأثر بقضاء الباب حين يدخل عليها، ولعلها أخذت، في إرادة هذا الامتداد لطفولة ابنها، بشعور مشفق حريص، كأن الشباب يسلبها إلملك عليه، أو كأنها تجد في الطفولة عوذةً تقي من العين.

ولكن أيّ وجه من الحياة يخوف توهك أن تستقبل إذا كان النهار؟ ونطلب الجواب فنرتدّ إلى الحرب العالمية الأولى يوم كان السلطان للترك، ونعرّج على مدينة من تلكم الجاثمات على شاطئ البحر الشامي، في هذه المدينة القديمة الجميلة تقيم الأم وفتاها، وفيها كما في غيرها من بلادنا الحبيبة كان الشبان وكان الكهول يساقون الى الجندية على عجل، وفي شيء من العنف إن شئت نبأ الناس يومئذٍ.

وكان الفتى إبن المكفوفة هذه — وتدعوه فؤاداً — من بين أولئك، فاحتج بأن ليس لأمه من عائل آخر، ولكن مجلي النفوس شهد أن له أخاً، فقيل: ليس بُدّ من أن يساق

أحدهما في القعود عن حياض الدولة ، ولا مفرّ من الواجب المقدس .

قال الفتى : (نعم لقد كان لي أخ ، ذهبت به المنون مهاجراً في ديار الغرب منذ أعوام خلت ، وعندي على موته طائفة من البينات إن أردتموها) . ولكن المجلس العسكري الموقر أبى أن يأخذ بقول الشاب ، فالوثيقة في عرف القانون إنما تثبت بنص السجل ، والسجل هنا ليس فيه شيء مما زعم ، ثم هذه خزانة السلطان قد وفقت بأهل الخاصة من ذوي الجنود ، فجعلت للانسان منهم كفاه ما يحرز من العوز ، عشرين قرشاً في الشهر الواحد !

حمل فؤاد هذا الى أمه ، وحمل إليها إنه من الغد صائر الى الجندية ، يستقبل عهداً لا يعرف لنفسه فيه غاية ، ولا لذات غيبه مصيراً ، ثم أردف يقول : وليس من حيلة يا أماه إلا أن أستجيب ، ولعلي أرتد إليك سالماً ، إن كُتب عليّ أن أعود .

قالت — وإلى أين هم آخذوك ؟

قال لا علم لي بهذا يا أماه ! وإنما رأيت الناس يتحدثون بأن الحرب قائمة في الشمال وفي الجنوب ، كما هي في الشرق وفي الغرب .

— ومتى تعود إليّ ؟ فإني ما زلت أذكر أخاك .

— لعلّ الله يحدث أمراً ، فلا تطول غيبتي .

— امض من غدك على بركة الله ، وسأدعو لك دائماً كما أفكر فيك ، وقد اضطر فأبيع بعض ما في البيت ، فلا يسوءنك هذا إن فعلته .

— كيف يا أماه ! ولعلي أجد ما أبعث به اليك ، فلست أعلم إلا أن الله رحيم كريم .

على هذا تنفس الصبح ، وهتف المؤذن : حيّ على الصلاة ، الصلاة خيرٌ من النوم ، فاذا الأم تنهض فتبرح علمها ذاك في شيء قليل من الحركة ، وشيء كثير من الهدوء ، حذر أن يحس طفلها النائم ، فهي إنما تحب له أن يتزوّد من الراحة ما وسعه أن يتزوّد لغده . ثم أخذت تتلمس طريقها تتبعها فتاة يتيمة في البيت لا تعرف إلا أنها تعيش على خدمته ، فهي فيه ثالثة اثنين ، تحب الأم وتعبدها ، وتحب الفتى وتعبده على صمت وهي تعلم أنها لا تشغل هيئاً من فراغ قلبه .

ولم تكد تبلغ مرقد الفتاة حتى أحست يقظتها ، وسمعتها تقول : (فتنتني بهمت قبلك

يا أمّاه !) وكان هـذا النداء محبباً إليهما جميعاً ، يعذب على لسان الفتاة فتتعمده أحياناً ، ويعذب في أذن الأم فهي تجد عليه من الاخلاص المحزون حلاوة ، وتخيل شيء من العزاء ، لو كان لقلب الثاكل المفجوع من سبيل إليه .

وتسعى الفتاة فتأخذ بيد السيدة ، فتحس هذه دمعاً يتساقط ، فتفرج لها ذراعاها وتروح تضمها ما وسعها أن تفعل ، كأنما هي تريد أن تداوي بين الجوانح لهيباً ، أو أن تخمد ثائرة ، أو أن تترجم عن شيء يجيش به الخاطر فتقول : (أنتِ ما أبقى لي الزمان) ، وتسكن الصغيرة في صدر الأم هنيهةً ، ثم تتخلص مترفقة فتنطلق تهيء لها وضوءها ومصلاّها ولفتى ما أوصى لسفر من متاع .

وتأخذ السيدة في صلاتها ، ثم في الابتهال الى الله تلتمس لقلبها الصبر ، ولولدها العون فيما يستقبلان من مُرّ هذه الغربة الدانية . وتشهد الفتاة هذا الابتهال . فإذا هي تهتزُّ على سحر الخشوع ، فيقوم في روعها أن تنهض تصلي ، وتعجل فتأخذ في وضوئها ، ثم تستقبل السماء تدعو للفتى كما تفعل أمه .

وما كاد وجه النهار يشرق حتى كان فؤاد قد استفاق فنهض يتهيأ لما هو مقبل عليه ، وإذ تمّ له ما أراد سعى الى أمه ، فطال بينهما العناق وطال البكاء ، والفتاة آخذة بنصيبها من الحزن واللوعة جميعاً ، حتى ومن الشوق فهي لا تعرف من قلبها إلاّ هذا الحنين الى فؤاد .

وتشفق الأم على ولدها فتخلي عنه ، فيلتفت فاذا الفتاة تهمّ به ، فيتلقى الحنان البريء المجهول مودعاً ، ثم يمضي وينغلق باب البيت . . .

* * *

— ٢ —

لو كان الذي طاف بهؤلاء الناس حظّاً من الغنى ، أو كان جاهاً من الجد لاحسه الجيرة بل وأهل البلد ، ولساهموا فيه قليلاً أو كثيراً ، ولكنه كان عناء لم يفطن له واحد من الخيّرين ، ثم مرّ الزمان يتدفق من أيامه ولياليه ، فهي عامان أو أكثر قليلاً ، وكنا

لا نعرف من نبأ فؤاد شيئاً ، حتى أقبلت رسالة منه ذات يوم على صديق تقول :

عزيزي كمال :

كان من حقك عليّ أن أكتب إليك منذ حين لأصل عهد الشهود بعهد الغياب ، فنعود نحيا على أحلام المجد العربي ، ولكن هذه الجندية ظلت تطوّف بي حتى هذا البلد الذي أكتب منه ،

وبعد فما أريد أن أحدثك حديثي ، ولا أن أسألك ما فعل الزمان بأبي فهذان ما لست استأثر لها بوقتك كلاّ ، ولا أريد أن أقص عليك متاعب الجندي العربي في هذه الحرب ، أو أن أصف لك عبث أعوان هذه الحكومة بالحرمات والحقوق والأرواح جميعاً ، وهذا ما لاينقصك علم طائفة منه . فقد كثر ما تحدثنا به أيام عهدنا القريب

وإنما أريد أن أحدث إليك بحديث تجربة عربية في هذا البلد العربي ، وقد كان يسعدني أن أجمّلها بالعطر والنور ، فلا أهديك بها ، ولكنا — يا صديقي — في حاجة الى العبرة والعبرة الموجعة ، أكثر منا الى العيش على الأذواق الصادرة .

إن حياة العبودية في كنف الإستعمار لشيء ضيء حقّاً ، ولكن الأسوأ منه أن تفتح عينيك فاذا أنت عند قومك أمام انحطاط في الروح عن مرتقى الشعب السيد .

وأهدف الى غرض الحديث فأعلمك أني غشوت هذه المدينة تابعاً لضابط تركي ، ولم يطل الوقت كثيراً حتى كنت أخا ودّ لنفر من الشباب وجدتهم قد أخذوا بأخذنا من هذا الحلم بالسلطان العربي ، ورأيت الناس على طرب واستبشار بحاكم جديد، ليس لانه العربي الفرد بين حكام المقاطعات ، فالحكام من العرب — وأنت تعلم — غير قليلين ، وإنما كان الطرب والإستبشار هذان لأن الرجل من العربية في مُصاصها ، ومن الوعي القومي فوق قمة الجبل .

وراحت صلاة هذا الحاكم تذيع تقواه ، وإن كانت في مثل صلاة الخائف وحديثه يذيع صلاحه ، وإن كان فيه بقية من روح عبد الحميد ، وراح أهل البلد يرون فيه رمزاً للحُلم الضخم ، وينعتون إليه في إعجاب المفتون ، فهو عبقري في السياسة ، وعبقري في تعبئة الجيش وتحريكه ، وعبقري في الادارة حتى وفي الادب والتأريخ .

وعاش الناس يحلمون ، وعاش صاحبهم يحلم معهم ، وانقضى زمن ليست الموعظة فيه انه من طويلاً أو قصيراً ، وإنما هي فيما استفاق عليه الجمهور ، حين استفاق ذلك الرجل يستخف بالتبعات والقانون والعفة جميعاً ، ويترخص في مهام الحاكم النزيه .

ثم أخذ يحرك لسانه فيرتجل المنافسين على بابه ، ويمد سلطانه فيدخل بين المرء وزوجه ، ويتصل حتى بالشرطي وبالجواز ، وتتسع ذمته للقروض التي لا ترد، والهدايا وإن بذلت في سبيل لا تذكر إلا همساً ، والبدر من المال يقدمها أغنياء الحرب الأتقياء تقدمة لأسفاره في طلب المجد .

وكان من أثر هذه السيرة الصالحة ، أن استخف أعوان الحكومة بالتبعات ، فجازوا الحدود حتى لقد صارت الرشوة شيئاً لا يلتمس له الخفاء .

وترعرع على بساط هذه الاباحية الخضراء نفر من التجار الصالحين ، وولجوا يزقون القائمين على الأمر كما يفعل الحمام بفراخه ، فصار الحكم يستقل لا لصالح الشعب بل المصالح الذاتية ، وأخذت السلع تختفي ، والأسعار تفحش ، والثروة تنحصر في أيدي طائفة قليلة من الناس ، ودأب هذا العبث ، وطال به شقاء الناس في البلد ، وأنت إن قلت أفسد هؤلاء التجار أخلاق الموظفين ، قالوا : (إنها لفاسدة منذ يومها) أو قلت : فاضت دماء المستهلكين ، أين الضمير ؟ قالوا : (إن هو إلا الاسم الاصطلاحي للجبن) ، وإن قلت : ألا موت في طلب الصلاح يرتفع الى السماء ! سمعت الهمس من حولك ، وليس غير الهمس .

قد تعلم بموت الاصالة عند إنسان من الناس فلا يثيرك أو ينجيك هذا الأمر كثيراً ، ولكنك لا تملك إلا أن تعجب وتحزن كثيراً حين تعلم بأن هذا الانسان أفسد بلداً ، فصار التفوق فيه ؟ لا للمثل الفاضلة ولا للأخلاق ، أو النزاهة ، بل للنفاق واليد الطولى والنوم على التقذي .

حسبك اليوم — أيها الصديق — ما سمعت من نبأ القوم في هذا البلد ، وقد تتهيأ الفرصة فاتصل بك ، لعلك تجد فيما أكتب اليك قصة للتسلية ، أو للتاريخ إن شئت، وسلام عليك من

فؤاد

***

— ٣ —

قال الراوي : —

وانقطعت أنباء هذا الشاب حتى انتهت الحرب وكانت الهدنة ، ورجع الجنود من فتيان بلده الى أهليهم ، فقص أحدهم بقية الحكاية فقال :

كان فؤاد موفور النصيب من هذه المعاني الآسرة تجدها عند بعض الناس قلة فما تدعك إلا وقد أحدثت في نفسك حبّاً أو أحدثت لصاحبها عهداً . ورأته هند يتردد الى بيت رئيسه الضابط ، فوقفت عند نظرها اليه ، وراحت ترقبه في غدوه ورواحه ، وتتحين مرآه وتتفكر فيه ، ولم تك بالعابثة تريد أن تلهو بأهواق الشباب زمناً يطول أو يقصر ، ولا بالغافلة بعد ما بينها وبين الفتى ، بل لقد جاهدت جهاد المحصنات عن قلبها تصرف نفسها ، وظل على الشوق يحرد به في عناد وإصرار .

* * *

ومرت الأيام فاذا هي تعتزم أن تبلو الفتى من قريب ، فتمضي فيما اعتزمت وتجري الصلة بينهما على اللقاء يتكرر ، والحب العذري يذكو ويتأصل ، والأحلام ترق على مدها وتميع ، والحديث يرق ويصفو ويعذب ، ثم ينساق الى حلم الزواج ، فما كانت تريده ، ولا هو كان يريدها الا على الطهر والسنة ، ولكنهما يجدان هذه العقبات يضعها الغنى والجاه والحسب دونهما ، فهي إبنة أولئك جميعاً ، وهو غريب غير معروف ، وأهلوها لا يسلمون بأمر ليس يجمل بهم .

ولا يقف بهما الرأي الا قليلاً ، فاذا هما يؤثران الصبر والريث الى أن تستوفي الحرب أجلها فيختفيان في بلد آخر زوجين حبيبين ، وامتد حديث الأحلام بين هند وفؤاد ، فكان همساً حيناً ، وحلواً شهياً حيناً ، بل فوق هذا وذاك كان علوياً جرى مع الطهر ، ومما بالروح ، ثم انتهى كما تنتهي الآجال في هذا الوجود .

وذلك على أن يعودا الى نجواهما في لقاء مقبل ضربت له الفتاة الجريئة موعداً ، ثم خرجت قبله من المكان حذر العيون .

ولكن القضاء كان يتم ، فلقد كتب على شخص ثالث أن يقف دون ما قدرا للحياة السعيدة ، وكان هذا الشخص من ذوي لُحمتها ، تقدّم من قبل في طلب يدها ، فلم ترضه بعلاً لاختلاف ما بينهما في تناول الحياة ، ولم يكُ بالشيء الغريب أن يحمل من نفسه عليها حيناً . فلقد كان شاباً شريراً ، وصاحب حيلة وإقدام أوصلاه إلى سرها ، ثم إلى مكان خلوتها بصاحبها ، ثم إلى أن يستمع حديثهما من حيث لا يشعران ، وما يعدث الفتاة إلاّ قليلاً ، حتى كان قد ولج المكان على فؤاد ، ففاجأه بطعنة نجلاء ، ثم أجهز عليه ، ثم جعله قطعاً ، وجاء بحقيبتين ، فوضع فيهما أشلاءه وانتظر حتى أقبل الليل .

***

كان القاتل ومعه شخص آخر يحملان حملهما ذاك ، وكان الليل قد تقدم ، فباغتهما العسس يتلصصان في مشيتهما ، فأمرا بالوقوف ، ثم سئلا عما في الحقيبتين ، فما تلعثم القاتل الشرير وزعم أنهما هدية الى الحاكم ، وانما اختار لها سُدفة الليل حرصاً على متعة الرحل ، ولم يكُ بالعسس من جرأة على المزيد في السؤال .

ويمعد الرجلان من ساعتهما إلى كهف في ضاحية المدينة ، فيلقيان فيه بأشلاء الذبيح ، ويرجعان كأن لم يكن من الأمر شيء .

وتفقد الجيش فؤاداً فما وجد له أثر ، وتفقدته الفتاة فما علمت شيئاً ، وتفقدته والدته منذ انقطعت أخباره ، فما استطاعت أن تعرف اليقين من أمره .

***

واختتم المحدث كلامه فقال —

لم يكن قد مضى من الزمان غير عهد قريب حين فتح الكهف لغرض التنقيب عن الآثار فعثر فيه على عظام هي عظام صاحبنا الفتى الذبيح ، ولكن الموظف الخبير زعم أنها لانسان عاش في العصر الحجري المتأخر .

عمان — شرق الاردن — شكري شعشاعة باشا